الفصل الثانى

أبو المحاسن ومعاصروه

احتلّ أبو المحاسن[1] مركز الصدارة بين المؤرخين بمصر بعد وفاة المقريزى والعينى ، أواسط القرن الخامس عشر الميلادى . واسمه أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغرى بردى بن عبد الله الظاهرى الجوينى ، ومولده بالقاهرة فى يناير سنة ١٤١١ م ، بدار الأمير منجك اليوسفى ، قرب مدرسة السلطان حسن ، بحى القلعة الحالى . وكانت أمه جارية تركية من جوارى السلطان برقوق ؛ وأصل أبيه تغرى بردى مملوك رومى (يونانى) جميل الطلعة ، اشتراه هذا السلطان ورباه وجعله ضمن مماليكه ، ولم يلبث أن أعتقه ورقاه يوم عتقه إلى فرقة الخاصكية ، وهى إحدى فرق المماليك السلطانية . ثم أصبح تغرى بردى موضع رعاية مولاه ، فتقلد كثيراً من الوظائف الرفيعة فى الدولة المملوكية ، واشترك فى حوادث ذلك العهد حتى وفاة السلطان برقوق سنة

---

(١) انظر (Wiet : L'Historien Abu-l-Mahasin) فى Bulletin de l'Institut d'Egypte, XII., 2 me fasc., 1930) وراجع كذلك (Popper: Abu-l-mahasin) فى طبعة جامعة كاليفورنيا بالولايات المتحدة الأمريكية لكتاب النجوم الزاهرة (Vol. VII. pp. XII—XV) .

obeikandl.com

١٣٩٨ م . وقام تغرى بردى أيام السلطان فرج بن برقوق بدور خطير فى حياة الدولة المملوكية الثانية ، ونهض بمسئوليات كبيرة ، إذ تولى نيابة دمشق ، وهى أكبر النيابات فى الدولة ، وأسهم فى مدافعة تيمورلنك عن مدن الشام ، وانهزم منه مع السلطان إلى الديار المصرية . ثم تولى تغرى بردى نيابة دمشق المرة الثانية بعد جلاء التتر عن الشام ، واتهم أثناء ولايته عليها بتهمة الخيانة العظمى ، فشق عصا الطاعة وهرب إلى بلاد التركمان ، حيث أقام مدة منفيا . ثم عفا عنه السلطان فرج بعد ذلك ، وطلب إليه العودة إلى القاهرة ، وولاه أتابكية العساكر بالديار المصرية ؛ بل تزوج السلطان من كبرى بناته ، واسمها فاطمة ، وولاه نيابة دمشق المرة الثالثة ؛ وما زال تغرى بردى على نيابتها حتى وفاته أوائل سنة ١٤١٢ م[1] . وفى تلك السنة نفسها مات السلطان فرج قتيلا بسيف الشرع ، على يد الخليفة العباسى والقضاة الأربع والأميرين نوروز وشيخ ؛ واعتلى عرش السلطنة المملوكية الثانية بعده تالى هذين الأميرين ، وهو المعروف باسم السلطان المؤيد شيخ .

وترك تغرى بردى ستة أبناء وأربع بنات ، منهن خوند فاطمة زوج السلطان المتوفى . وكان أبو المحاسن أصغر أولئك

---

(١) ترجم أبو المحاسن لأبيه تغرى بردى ترجمة وافية فى كتابه النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (طبعة كاليفورنيا) ، ج ٦ ، ص ٤٣٢ — ٤٣٥ .

الأولاد والبنات جميعاً إذ توفى والده وهو فى الثانية من عمره ، فتولى تربيته قاضى القضاة ناصر الدين بن الديم الحنفى ، وهو زوج أخته الثانية واسمها بيرم . ثم توفى ابن الديم ، وتزوجت بيرم من قاضى القضاة جلال الدين البلقينى الشافعى ، فأكمل البلقينى تربية الصبى إلى أن كبر وانتشى وترعرع . ثم توفى البلقينى سنة ١٤٢١ م ، فصار أبو المحاسن تحت كنف جماعة من أكابر مماليك أبيه ، فتعهدوه بما حاجه من رعاية وعيش وتعليم مدنى وحربى .

وحكى أبو المحاسن عن نفسه أنه أدخل يوما وهو فى الخامسة من عمره إلى حضرة السلطان شيخ ، بعد أن علّمه بعض مَنْ معه أن يطلب إلى السلطان أن يعطيه "خبزاً" ، ومعناه فى مصطلح الدولة المملوكية إقطاع من الأرض ؛ وهذه عبارة أبى المحاسن : "فلما جلست عنده وكلمنى سألته فى ذلك ، فغمز من كان واقفاً بين يديه وأنا لا أدرى ، فأتاه برغيف كبير من الخبز السلطانى ، فأخذه بيده وناولنيه ، وقال : خُذ ، هذا خبز كبير مليح ، فأخذته من يده وألقيته إلى الأرض ، وقلت : أعطِ هذا للفقراء ، أنا ما أريد إلا خبزاً بفلاحين ، يأتون بالغنم والأوز والدجاج ، فضحك حتى كاد أن يغشى عليه ، وأعجبه منى ذلك إلى الغاية ، وأمر لى بثلاثمائة دينار ، ووعدنى بما طلبته وزيادة[1]" .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (طبعة كاليفورنيا) ، ج ٦ ، ص ٤٣٠ .

والواقع أن أبا المحاسن نشأ فى بسطة من العيش ، وليس من الحق قوله فى موضع آخر من كتابه هذا إنه عاش فقيراً من غير مال ولا عقار بعد وفاة أبيه ، لاستيلاء السلطان فرج فعلاً على جميع ماخلفه تغرى بردى من ثروة ومتاع — وإقطاع طبعاً . ذلك أن أوصياءه كفلوا نفقته وتنشيئه وتعليمه على أحسن وجه ، كما تشهد بذلك قائمة المشايخ الذين درس عليهم مختلف علوم عصره ، بمصر والشام والحجاز ، ومنهم المقريزى والعينى وابن حجر وابن عربشاه بالقاهرة ، وابن ظهيرة وابن العليف بمكة ، والمرعشى وابن الشماع بحلب ، وكثير غيرهم من أعلام القرن الخامس عشر الهجرى بالشرق الأدنى من علماء المسلمين . على أنه أحب التاريخ من دون العلوم التى درسها وأجيز له فيها ، فلازم المقريزى — والعينى أيضاً — من أجل ذلك ، ونهج نهجهما ، واتبع أسلوبهما ونمطهما فى التحصيل والكتابة الغزيرة ؛ واجتهد فى ذلك إلى الغاية ، وساعدته جودة ذهنه وحسن تصوره ، وهذا فضلا عن معرفته باللغة التركية[1] .

غير أن تفضيل أبى المحاسن لدراسة التاريخ خاصة يرجع فى الغالب إلى ماستقام للعينى بواسطته من المكانة السامية التى شغلها فى بلاط السلطان برسباى ، إذ طمح هو أيضاً فى مثل ذلك لنفسه ،

---

(١) انظر تفصيل هذا كله فى مقدمة كتاب النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (طبعة القاهرة) ، ج ١ ، ص ٣ — ٢٨ .

بالوسيلة عينها لدى سلطان مقبل . فلما مات المقريزى سنة ١٤٤٢م ، والعينى بعده سنة ١٤٥١ م ، خلا الجو لأبى المحاسن ، ولم يوجد من ينازعه فى زعامة المؤرخين فى عصره . وأشار أبو المحاسن نفسه إلى ذلك فى غبطة ورضى ، وجسارة مشوبة بغرور ، إذ كتب بصدد وفاة العينى : " ولما انتهينا من الصلاة على قاضى القضاة [العينى] ، قال لى بدر الدين محمد بن عبد المنعم الحنبلى : خلا لك البرّ بيّض واسفر[1] . فلم أرد عليه ، وأرسلت إليه بعد عودتى إلى منزلى ورقة بخط العينى هذا ، يسألنى فيها عن شىء سئل عنه فى التاريخ من بعض الأعيان ، ويعتذر عن الإجابة بكبر سنه وتشتت ذهنه ، ثم أبسط فى الشكر والمدح والثناء إلى أن قال : وقد صار المعول عليك الآن فى هذا الشان ، وأنت فارس ميدانه وأستاذ زمانه ، فاشكر الله على ذلك ؛ وكان تاريخ كتابة الورقة المذكورة فى سنة تسع وأربعين[2] وثمانمائة " ، أى قبل وفاة العينى بسنتين .

ومهما يكن من انتهاء الزعامة بين المؤرخين فى مصر لأبى المحاسن ، فإنه لم يتفق له أن صار نديماً دانياً لسلطان من سلاطين المماليك ، يقرأ له التاريخ فى أمسياته ، مثلما كان العينى مع السلطان

---

(١) كذا بالأصل (انظر الحاشيه التالية) ، والجملة دعابة لفظية مستمدة من عبارة " بيض واصفرى " المشهورة .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (طبعة كاليفورنيا ، ج ٧ ، ص ٣٦٦ ؛ وانظر كذلك أول صفحة من كتاب حوادث الدهور — طبعة كاليفورنيا — حاشية ه بتلك الصفحة .

برسباى . على أنه تقلد كثيراً من الوظائف فى عهود مختلفة ، وكان له من مولده وتنشيئه ، وقراباته ومصاهراته وصداقاته ، ما جعله من روّاد البلاط السلطانى . ولذا كان أبو المحاسن من المختلفين إلى حضرة السلطان برسباى ، حتى صحبه فى حلقات الصيد والنزهة والسرحة ؛ وحسُنت صلته بالسلطان جقمق ، حتى انتظمت زياراته مجلسه مرّة كل أسبوع ، ضمن رجال العلم والأدب ؛ وكان بينه وبين الأمير محمد بن جقمق صحبة قديمة ومحبة زائدة ومصاهرة . بيد أنه لم يكن ذا حظوة لدى السلطان إينال ، حتى إن زياراته لبلاطه لم تعدُ المرة أو المرتين فى العام كله . ثم لم يلبث أن عاوده الحظ عند السلطان خشقدم الرومى ، بفضل وساطة أحد الأمراء الكبار . وعاش أبو المحاسن ليرى أوائل سلطنة قايتباى ، وليكتب فى حوادثها بما يدل على أنه لم يلق فى بلاط ذلك السلطان عناية أو قبولا .

على أن أبا المحاسن استطاع خلال حياته الطويلة — التى صرف معظمها وهو يحوم حول البلاط السلطانى — أن يكتب كثيراً فى التاريخ والتراجم ، وأن يبرع فى فنون الفروسية ، من لعب الرمح ورمى النشاب ، وسوق البرجاس ولعب الكرة بالصوالجة (Polo) ، وأن يحذق علم النغم والضروب والإيقاع ، وأن ينظم الشعر فى العربية والتركية ، وأن يحج إلى مكة مرتين سنتى ١٤٢٣ و ١٤٤٥ م . وقام أبو المحاسن فى حجته الثانية

بوظيفة باش المحمل المصرى ، وهى أقل رتبة من وظيفة أمير المحمل ؛ وجرت العادة أن يكون لهذا الأمير رجلان فى معيته يسمى أحدهما باش الميمنة ، وثانيهما باش الميسرة ، وكان قايتباى الذى تسلطن فيما بعد على الميسرة[1] فحسب .

أما مؤلفات أبى المحاسن فعددها اثنا عشر كتاباً على قول ابن الصيرفى وغيره ممن كتبوا ترجمته ، وبقى بين أيدينا من هذه المؤلفات سبعة فقط ، أشهرها كتاب عظيم فى تاريخ مصر من الفتح الإسلامى إلى سنة ١٤٦٧ م ، واسمه النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، فى سبع مجلدات ضخمة[2] . وعكف أبو المحاسن على تأليف هذا التاريخ الكبير من أجل السلطان المرجو محمد بن جقمق ، الذى عاجلته المنية سنة ١٤٤٣ م قبل أن يتحقق ذلك الرجاء ؛ وكان فى عزم أبى المحاسن أن يختتمه بحكم هذا الأمير وعدله ، وأن يجعل منه ما جعل العينى من عقد الجمان[3] . وكثيراً ما يشير أبو المحاسن فى ثنايا هذا الكتاب إلى كتاب آخر سبق له أن ألفه ، واسمه المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ، وهو كتاب حافل

---

(١) السخاوى : التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، ص ١٢٣ .

(٢) ذكر أحد المعاصرين أن أبا المحاسن اختصر هذا المؤلف فى مجلد اسمه الأنوار الظاهرة من الكواكب الظاهرة ، غير أنى لم أستطع العثور على هذا الكتاب فى المكتبات التى زرتها حتى الآن .

(٣) أبو المحاسن . النجوم الزاهرة (طبعة كاليفورنيا) ، ج ٧ ، ص ٢٩٣ .

بتراجم الأعيان والنابهين من سلاطين الدولتين المملوكية الأولى والثانية ورجالها ، وبعض ملوك البلاد القريبة من المسلمين والنصارى ، من سنة ١٢٥٢ م إلى عصره ؛ ورتّبه أبو المحاسن ترتيباً أبجدياً ، وأراد به أن يكون ذيلا وتكملة لكتاب الوافى بالوفيات ، لخليل بن أيبك الصفدى المتوفى سنة ١٣٦٢ م . ثم اختصر أبو المحاسن هذا المؤلف فى كتاب سماه الدليل الشافى على المنهل الصافى ، وجعل لهذا المختصر مختصراً سمّاه مورد اللطافة فى ذكر من ولى السلطنة والخلافة ، فجاء هذا الكتاب الأخير كالهيكل العظمى ، لا يوجد به سوى تاريخ مقتضب للسيرة النبوية ، يتلوه بيانات جافة بأسماء الصحابة والخلفاء الراشدين ، والأمويين والعباسيين والفاطميين ، ومَنْ وليهم على مصر إلى سنة ١٤٣٨ م .

ولأبى المحاسن مؤلَّف آخر يكثر من الإشارة إليه كذلك فى كتاب النجوم الزاهرة ، واسمه حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور ، وهو ذيل لكتاب السلوك لمعرفة دول الملوك لأستاذه المقريزى ، وترتيبه على السنين والشهور والأيام كترتيب السلوك ، أى أن أبا المحاسن بدأ به من حيث انتهى ذاك إلى سنة ١٤٥١ م . لكنه خالف المقريزى وغايره قليلا فى طريقته من الإطناب فى الحوادث والاقتصار فى تراجم الوفيات ، فأطال فى كل منهما ما استطاع إلا ما سبق له استيفاؤه فى كتابيه الأولين ، " لتكثر الفائدة من الطرفين " ، على قوله فى مقدمته لذلك الكتاب الأخير .

ومن مؤلفات أبي المحاسن كذلك كتاب اسمه نزهة الرائى فى التاريخ ، وكتاب البحر الزاخر فى علم الأوائل والأواخر ؛ وهذان عدا كتب أخرى[١] لا صلة لها بعميم التاريخ ، وهى كتاب نزهة الألباب فى اختلاف الأسماء والألقاب ، وكتاب حلية الصفات فى الأسماء والصناعات ، وكتاب البشارة فى تكملة الإشارة ، وكتاب الانتصار للسان التتار ، وهو رسالة فى معانى اللغة التركية ، وكتاب فى الرياضيات والموسيقى ، وكتاب السكر الفاضح[٢] والعطر الفائح فى التصوف .

ونقدَ ابن الصيرفى والسخاوى مؤلفات أبى المحاسن فى عنف وشدة ، ورماه كل منهما بما خال أو شاء من تهم يستشف القارئ فى عبارتها شيئاً من الغيرة والحسد . ومن ذلك قول السخاوى ، ونصه : " وبالجملة فقد كان [أبو المحاسن] حسن العشرة ، تام العقل — إلا فى دعواه فهو حمق — . . . . لطيف المذاكرة ، حافظاً لأشياء من النظم ونحوه ، بارعاً حسبما كنت أتوهمه فى أحوال الترك ومناصبهم وغالب أحوالهم ، منفرداً بذلك ،

---

(١) جميع الكتب المتقدمة موجودة ، كاملة أو ناقصة ، مطبوعة أو مخطوطة ، فى مختلف مكتبات العالم ، وما عداها فغير مقطوع بوجوده حتى الآن .

(٢) توجد نسخة خطية من هذا الكتاب فى مكتبة الإسكوريال ، تحت رقم ٣٦٧ .

لا عهد له بمن عداهم ، ولذلك تكثر فيه أوهامه ، وتختلط ألفاظه وأقلامه ، مع ساوك أغراضه ، وتحاشيه مجاهرة مَن أدبر عنه بإعراضه ، وما عسى أن يصل إليه[1] تركى ! " . وردّد ابن الصيرفى هذا المعنى ، وزاد عليه أن أبا المحاسن كان " كلما فرغ من تصنيف يتوجّه به إلى من يعرف العربية ، فيصلحه له ويصير له به مزية " .

ومع هذا وغيره من أقوال المعاصرين يتجلّى من كتب أبى المحاسن أنه كان مؤلفاً واسع المعرفة ، شديد التدقيق والتحرى فى كتابته ، وأنه كان مجتهداً كدوداً ، أميناً بقدر ما انطوت عليه هذه الصفة من معنى عند جمهرة المؤرخين فى العصور الوسطى بالشرق والغرب ، حين لم يكن النقل وانتحال الصفحات المتتابعة من كتب السابقين والمعاصرين جريمة شنيعة . يضاف إلى ذلك أنه إذا أخذنا نقد أبى المحاسن لأخلاق الرجال الذين تناولهم فى كتبه مقياساً لخلقه ، وذكرنا قول ابن إياس فيه ، وهو الذى خلفه فى زعامة المؤرخين بمصر ، وضح لنا حقاً أنه كان " رئيساً حشما فاضلا ... له اشتغال بالعلم ... ، مشغوفا بكتابة التاريخ[2] " ؛

---

(١) السخاوى : الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع ، ج ١٠ ، ص ٣٠٥ — ٣٠٨ .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور (طبعة القاهرة) ، ج ٢ ، ص ١١٨ .

بدليل أنه لم ينقطع عن الكتابة والتأليف حتى قبيل وفاته في يونيه سنة ١٤٧٠ م .

وعاصر أبا المحاسن اثنان ممن اشتغلوا مثله بالتاريخ المصري ، وألفوا فيه مؤلفات قيمة ، وهما بحسب الترتيب الزمني ابن الصيرفي والسخاوي ، وكلٌّ منهما صاحب ترجمة طويلة لأبي المحاسن تمَّ عن كثير مما قام بين مؤرخي ذلك القرن كله من تنافس وغيرة ، وحسد أحياناً وسوء دخيلة .

وكان ابن الصيرفي أكبر الرجلين عُمْراً ، وإن بدا أقلهما شهرة وتراثاً في التأليف ، واسمه نور الدين علي بن داود الصيرفي الخطيب الجوهري الإسرائيلي الحنفي . وعُرف بين معاصريه باسم ابن الصيرفي — وابن داود كذلك . وكان مولده بالقاهرة سنة ١٤١٦ م ، أي اثنتي عشرة سنة قبل ميلاد السخاوي ، وأبوه داود صيرفيٌّ بدواوين الدولة المملوكية في عهد سلطان لم تعينه المراجع التي بأيدينا حتى الآن ، وتوفي داود هذا سنة ١٤٤٩ م .

نشأ ابن الصيرفي في كنف والده ، وتعلم تعلماً يسيراً ، كما يفهم من ترجمة السخاوي[1] له ، مع أنه تتلمذ لابن حجر العسقلاني ،

---

(١) انفرد السخاوي (الضوء اللامع ، ج ٥ ، ص ٢١٧ — ٢١٩) بترجمة وافية لابن الصيرفي ، وليس في غيره من المراجع التي أعلمها ، مثل ابن إياس (بدائع الزهور ، طبعة القاهرة ، ج ٢ ؛ ص ٢٨٨) ومؤلفات ابن الصيرفي التي لم يصل إلينا منها سوى النزر القليل ، ما يضيف كثيراً إلى ما كتبه السخاوي .

ولازم مجلسه فى الإملاء وغيره ، وتمرّس الركوب فى خدمته ، حتى استثقله لذلك جماعة من تلاميذه . ويظهر أن السخاوى — وهو كذلك تلميذ لاحق لابن حجر — كان ممن ضاق بتلك العلاقة بين ابن الصيرفى وشيخه ، كما عظم عليه توليته خطابة جامع السلطان برقوق ، وذهاب ابن حجر للصلاة خلفه هنالك ، ولذا جاءت ترجمته لابن الصيرفى مملوءة غمطاً وسخرية

مارس ابن الصيرفى التجارة بعد وفاة أبيه ، مع بقائه على الاشتغال بالعلم ، وقيامه على وظيفة الخطابة بجامع السلطان برقوق وغيرها من الوظائف الصغرى ؛ فتكسب بسوق الجوهريين — ومن هنا جاء تلقيبه بالجوهرى — وابتنى بعض الدور بحكر الشامى بالقاهرة وأسكنها بالأجرة . ثم آل أمره يوما إلى أن نفد غالب ما عنده واحتاج ، فولاه قاضى القضاة محب الدين بن الشحنة الحنفى نائباً للحكم (قاضياً) ، واشتغل بنسخ الكتب وارتفق بذلك ، فنسخ كثيراً من كتب شيخه ابن حجر وأبى المحاسن والسخاوى فى التاريخ وغيره . ومن ثمّ كان اشتغاله بالتأليف فى التاريخ بعد أن تقدّمت به السن ، وفسدت علاقته بالسخاوى وأبى المحاسن من حين ذاك ، فشى السخاوى بسيرته عند الناس ، وامتنع أبو المحاسن من إعارته كتبا من مكتبته ، بل أخفى عنه تصانيفه مخافة أن ينقل منها . على أن ذلك لم يفلّ من عزم ابن الصيرفى ، أو يصرفه عن الكتابة ، فألف كتاب نزهة النفوس

obeikandi.com

والأبدان فى تواريخ الزمان ، وافتتحه بسلطنة برقوق سنة ١٣٨٢ م ، واختتمه عند ١٤٤٦ م ، وهى السنة الثامنة من عهد السلطان جقمق ؛ ثم كتاب أنباء الهصر فى أبناء العصر ، ولم يصل إلينا منه سوى الجزء التاسع فقط ؛ ثم كتاب سيرة الأشرف قايتباى ، وهو غير مقطوع بوجوده ، ولعله المخطوط المكائن بالمتحف البريطانى بلندن لغير مؤلف معروف . ولابن الصيرفى كذلك كتاب فى السيرة النبوية سماه الجوهرية ، ورآه أبو المحاسن وأنهاه مطالعة وقرّظه وهو راغم بخطه ، إلى جانب خطوط الكثير من المقرّظين ، على قول ابن الصيرفى نفسه .

غير أن السخاوى لم يشأ إلا أن يحطّ من قدر ابن الصيرفى ومؤلفاته ، وربما قصد بذلك أن ينتقم لنفسه منه ، لمزاحمته إياه فى صحبة ابن حجر وملازمته ، فقال : " إنه نصب نفسه لكتابة التاريخ ، فكان تاريخا ، لكونه لا تميز له عن كثير من العوام إلا بالهيئة ، مع سلوكه لما يستقبح ، بحيث ... صار الفقهاء والقضاة به مثلة .. ؛ وبالجملة فهو من سيئات الزمان ، غنى بشهرة سيرته عن مزيد البيان ، وجهله واضح الظهور . . . . . (١) " .

ولابن إياس فى ترجمته القصيرة لابن الصيرفى نقدٌ مشابه ، على الرغم مما فيه من اعتدال فى اللفظ ، ونصه أن ابن الصيرفى

---

(١) السخاوى : الضوء اللامع ، ج ٥ ، ص ٢١٨ — ٢١٩ .

"كان يكتب التاريخ مجازفة ، لا عن قائل ولا عن راوٍ ، وله في تاريخه خبطات كثيرة ، وجمع من ذلك عدة كتب من تآليفه .. وكان لا يخلو من فضيلة[1] "

على أن ابن الصيرفي لا يستحق هذه العبارات المريرة من معاصريه ، يشهد بذلك السخاوي نفسه في ثنايا ترجمته له حين يعجب من كثرة مقرظيه ومريديه من أعلام عصره ، ويشهد به كذلك كاتب هذه السطور بعد أن قرأ ما استطاع قراءته من المؤلفات المذكورة ، إذ وجد بها كثيراً من تفاصيل الحقائق التي توجد مقتضبة مختصرة في كتب الآخرين ، كأبي المحاسن والسخاوي وابن إياس . وكانت وفاة ابن الصيرفي في يونيه سنة ١٤٩٤م .

أما السخاوي واسمه أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد ... السخاوي ، نسبة إلى بلدة سخا الحالية بمركز كفر الشيخ بمديرية الغربية ، فولده سنة ١٤٢٧م ، بحارة بهاء الدين لصُنْق باب الفتوح القديم بالقاهرة . وعاش جده محمد شيخاً فقيراً صالحاً يتكسب بتجارة يسيرة في سوق الغزل بميدان القمح بالقاهرة ، ويكثر من الاختلاف إلى مواعيد رجال الدين ومجالسهم للإفادة والاعتبار . وكان أبوه عبد الرحمن كذلك في معيشته وتكسبه وغشيانه مجالس رجال الدين ، وطابت صلته ببعضهم لعلمهم بتقواه

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور — طبعة القاهرة ، ج ٢ ، ص ٢٨٨ .

وتصوفه[1] ولذا كان معظم شيوخ السخاوي ومعاصريه من رجال الدين أصحاب أبيه ، ومنهم ابن حجر الذي اختصّ به وأحبه ، لسبق الصلة بين والده وابن حجر ، وقرب منزله من منزله . ولزم السخاوي ابن حجر أشد الملازمة ، وحمل عنه ما لم يشاركه فيه غيره ، وأخذ عنه أكثر تصانيفه في الحديث والتاريخ والتراجم ، وهذا فضلا عن مقروءاته ومسموعاته على غير ابن حجر من المشايخ . وحلا للسخاوي أن يمدّ هذه المقروءات والمسموعات وأصحابها ، عداً دقيقاً في ترجمته لنفسه في كتابه الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، وهي ترجمة ضافية في ثلاثين صفحة كاملة ، وليس في كتابه كله ترجمة تشبهها أو تقرب منها في السعة والإفاضة "والتمدّح" بأقوال المعجبين به من المعاصرين[2]

وعُرف السخاوي عند بعض "أناس مخصوصين" باسم ابن البارد ، وهي تسمية اشتهر بها جدّه وأبوه كذلك لسبب غير واضح تماما ، لعله فيما يخص السخاوي على الأقل أنه كان عظيما عند نفسه إلى درجة لم يشاركه فيها الكثيرون من المعاصرين ، وأنه تناول معظم أعلام عصره بالتجريح والنقد ، ورماهم في غير واحد

---

(١) ترجم السخاوي (الضوء اللامع ، ج ٤ ، ص ١٣٤ — ١٣٥ ، ج ٢ ، ص ١٧٥ — ١٧٧) لكل من جده وأبيه ترجمة تفيض حنانا وبرّاً ، وهي العمدة الوحيدة لكاتب هذه السطور فيما كتب هنا بصددها .

(٢) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٨ ، ص ٢ — ٣٢ .

من مؤلفاته بالقصور وضعف الرواية والبيان . ومع هذا فالسخاوى نشأ وعاش متمتعاً برعاية أستاذه ابن حجر وعنايته ، وبادل الشيخُ تلميذه حباً بحب وإخلاصاً باخلاص ، فصار يرسل إليه خادمه ليعلمه بوقت ظهوره فى بيته ليقرأ عليه ، بل قال فيه ، ولما يبلغ الثانية والعشرين من عمره : " إنه مع صغر سنه ، وقرب أخذه ، فاق من تقدم عليه بجده واجتهاده ، وتحريه وانتقاده (١)" وأكثر من هذا أن ابن حجر قام ليخدم بنفسه فى حفل عرس السخاوى سنة ١٤٤٤ م ، وجهد فى توظيفه بوظائف تدريس الحديث التى أهله لها أحسن تأهيل .

ثم توفى ابن حجر سنة ١٤٤٩ م ، فعزم السخاوى على الرحيل عن مصر إلى الشام ، ليسلو عن فقد أستاذه بالدرس والتحصيل هناك . غير أن أبويه ثنياه عن عزمه هذا ، فظل بمصر مواصلاً دراسة الحديث ، وطفق يتنقل فى سبيل ذلك بين المدن الكبرى كدمياط ومنوف والمحلة الكبرى وسمنود والإسكندرية وغيرها . واجتهد السخاوى أثناء ذلك أن يجد لنفسه وظيفة لتدريس الحديث بالقاهرة ، مستعيناً بأصدقاء أستاذه الراحل . ثم انتهى به الأمر إلى الحج مع أمه وأبيه سنة ١٤٥٢ هـ . فأقام بمكة بضع سنين وجاور بها ، وزار المدينة . وتنقل السخاوى ١٤٥٣م بعد ذلك بين مصر

---

(١) السخاوى : الضوء اللامع ، ج ٨ ، ص ٣٠ .

والشام والحجاز ، فحج خمس مرات آخرها سنة ١٤٩٢ م ، وحرص على الإقامة بمكة مدة إثر كل حجة ، كما استقر بمصر أحيانا لتدريس الحديث بمدارس القاهرة ، ودأب أثناء ذلك كله على التأليف فى الحديث والتاريخ .

واتصل السخاوى بالأمير يشبك بن مهدى كاشف الوجه القبلى على عهد السلطان خشقدم ، ويشبك هذا هو صاحب الدوادارية الكبرى زمن السلطان قايتباى . وكان يشبك أعظم شخصية فى الدولة المملوكية مدّة حكم قايتباى ، وبيده فوق وظيفته الكبرى خمس وظائف أخرى ، مع ما يتعلق بها من أوقاف وأملاك ومدارس ومحسوبية ، ومن ذلك تعيينه السخاوى على إحدى وظائف تدريس الحديث التى تعب قبلا فى الحصول على مثلها أيما تعب ، وسعيه لهقبل ذلك عند خشقدم ليكون مقرئا للحديث بعد إمام السلطان . ومع هذا شاء السخاوى أن يذكر صلته بذلك الأمير الكبير فى عبارة كلها كبرياء وترفع ، وأن يقرر أن يشبك سأله فى البيت عند السلطان خشقدم ليلتين فى الأسبوع ، ليقرأ له نخباً من التاريخ ، كما فعل العينى مع السلطان برسباى ، فتنصل وأبى ، وأنّ يشبك التمس منه أن يحضر إليه ليقرأ له تصانيفه ، فامتنع كذلك[1] . وهذا نص عبارة السخاوى فى

---

(١) السخاوى : الضوء اللامع ، ج ٨ ، ص ٣١ .

ترجمته لهذا الأمير البذول المحسن : " وقد تكرر اجتماعي به ، وكان حريصاً على ذلك ، بحيث رغب في تحصيل أشياء من تصانيفي ، وأسمع بعض أولاده مني بحضرته [كتاب] المسلسل [في الحديث] ، ولو وافقته على مزيد الاجتماع به لتزايد إقباله ، ولكن الخيرة فيما قدّر(١) "

وعُني السخاوي بذكر مؤلفاته الكبرى والصغرى في أربع صفحات من ترجمته لنفسه(٢) ، ومنها في التاريخ كتاب التبر المسبوك في ذيل السلوك ، في أربعة أجزاء(٣) ، وهو كما يتضح من آخر العنوان تكملة لتاريخ المقريزي المشهور ، وكان تأليفه إياه إجابة لرغبة الأمير يشبك وهو على وظيفة الدوادارية الكبرى ، أي أن السخاوي كتبه زمن السلطان قايتباي . ويظهر أن السخاوي شُغِف بتكميل كتب السابقين أو تلخيصها ،

---

(١) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٠ ، ص ٢٧٢ — ٢٧٤ .

(٢) انظر السخاوي (الضوء اللامع ، ج ٨ ، ص ١٥ — ١٩) حيث توجد قائمة طويلة بأسماء كتبه ورسائله ومقالاته ، وهي جديرة ببحث الباحثين واستقصاء الراغبين في إحياء الكتب العربية المبعثرة بمختلف مكتبات العالم .

(٣) طبع هذا الكتاب بالقاهرة من نسخة فريدة ناقصة تبتدئ من سنة ٨٤٥ هـ وتنتهي سنة ٨٥٧ هـ ، مع أنه كان يشمل حتى أواخر القرن التاسع الهجري ، على قول السخاوي نفسه ، وهذا فضلا عن إشارات المعاصرين بصدده .

إذ ألّف كتاب وجيز الكلام فى ذيل تاريخ دول الإسلام تكملة لكتاب الذهبى المؤرخ ، وكتب الذيل المتناهى تكملة لتأليف ابن حجر فى قضاة مصر ، كما ألّف الذيل على طبقات القراء تكملة لكتاب الجزرى . أما ملخصاته فمنها كتاب المنتقى من تاريخ مكة للفاسى ، وكتاب تلخيص تاريخ اليمن لمؤلف لم يذكره ، ولعله الفاسى كذلك .

وللسخاوى فى التاريخ كذلك كتاب الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ التاريخ ، وهو مقالة طويلة فى قواعد الجرح والتعديل (historiography) عند المؤرخين ، وبه صفحات ضافية فى تاريخ التاريخ وفضله بين العلوم اللازمة للمشتغلين بالحكم ومصائر الدول . وله فى التراجم كتاب الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، والجواهر والدرر فى ترجمة ابن حجر ، والقول المنبى فى ترجمة ابن عربى ، وغير ذلك كثير فى مختلف العلوم والفروع ، ولا سيما الحديث .

على أنه لابد هنا من التعريف بكتاب الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، إذ هو معجم زاخر فى اثنى عشر جزءاً مطبوعة ، للنساء المسلمات منها جزء بتمامه . وهذا الكتاب فخر مؤلفات السخاوى ولا ريب ، برغم ما ابتلى به مؤلفه من تصغير الكبير وتحقير الصغير ممن ترجم لهم ، حتى أبسل نفسه للوم المعاصرين وتجريح اللاحقين ، ومن ذلك قول ابن إياس فيه بأنه " ألف تاريخاً فيه

كثير من المساوى في حق الناس[١] " ، وقول قرينه السيوطي مستفهماً مستنكراً : " ما ترون في رجل ألّف تاريخاً جمع فيه أكابر وأعياناً ، ونصب لأكل لحومهم خواناً ، ملأه بذكر المساوى وثلب الأعراض ، وفوّق فيه سهاماً على قدر أغراضه والأعراض هي الأغراض ، جعل لحم المسلمين جملة طعامه وإدامه ، واستغرق في أكلها أوقات فطره وصيامه ، ولم يفرّق بين جليل وحقير . . . [٢] " واشتدّت الخصومة بين السيوطي والسخاوي مدة ، واضطرم الجدل بينهما حيناً ، فرشق كل منهما صاحبه بأنواع التهم ، حتى حال بينهما الموت ، إذ توفى السخاوي بالمدينة سنة ١٤٩٧ م ، وبقي السيوطي بعده تسع سنين .

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور — طبعة القاهرة — ج ٢ ، ص ٣٢٢ .

(٢) السيوطي : الكاوي على السخاوي . (مخطوطة بدار الكتب الملكية المصرية ، رقم ١٥١٠ أدب) .

obeikandl.com